گـۆڤـاری زانـكـۆی ڕاپــەڕیــن
Journal of University of Raparin.
مجلة جامعة رابرين

E-ISSN: 2522 – 7130 P-ISSN: 2410 – 1036
This work is licensed under CC-BY-NC-ND 4.0
DOI: https://doi.org/10.26750/ww15v682

تاريخ الاستلام: 20/09/2025
تاريخ الـقبول: 09/11/2025
تاريخ النــشر: 20/06/2026

النوستالجيا في شعر عمر بهاء الدين الأميري (الحنين إلى المكان، الشكوى من الدهر)

ژاكاو فيصل حقي [1] مسعود سليم حمدآمين [2]
zhakawhaqi@gmail.com masud.salim@koyauniversity.org
[1+2] قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة كوية، كوية، إقليم كوردستان، العراق

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف تجليات النوستالجيا (الحنين إلى الماضي) في الشعر المعاصر، ودورها في بناء المعنى الشعري والتعبير عن الصراعات الداخلية للإنسان. وبما أن النوستالجيا من المشاعر الإنسانية التي تؤثر في التكوين النفسي، بل وفي التكوين البيولوجي أيضاً؛ فهي تحسن المزاج، وتزيد الثقة بالنفس، وتعد مصدر إلهام للمستقبل؛ لذا تسلط هذه الدراسة الضوء على مجموعة من النصوص الشعرية المختارة التي تمثل نماذج بارزة لهذا الموضوع.

والنوستالجيا في الشعر الحديث ليست مجرد شوق إلى أيام مضت، بل هي تجربة وجدانية تعكس أزمة الهوية والذاكرة؛ حيث تتداخل المشاعر الإنسانية مع التحولات الثقافية والاجتماعية، مما يجعل النوستالجيا ظاهرة شعرية عميقة ممتدة في القصيدة العربية من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا. فمع تقدم الزمن يزداد الحنين؛ لأن هذه الظاهرة رافقت الإنسان منذ هبوطه على الأرض، لذا نلمس في الأدب العربي مثيرات شتى للحنين؛ فالريح التي تهب من جهة الأهل والأوطان، وهديل الحمام، كلها رموز تحمل ذكريات مرتبطة بمكان معين تثير كوامن الشوق.

وعندما يشتكي الإنسان من تقلب الزمان، لا يكون الأمر مجرد حزن عابر، بل هو صراع مع المصير أو نضال ضد القسوة والظلم والقمع. ومن جهة أخرى، يبرز هذا البحث أهمية النوستالجيا في الشعر المعاصر، وكيف يمكن لهذا الشعور أن يعكس تجارب الإنسان المشتركة التي تتجاوز الحدود الزمنية والمكانية. كما يساهم البحث في تعزيز الفهم النقدي والنفسي للنصوص الشعرية، وفتح آفاق جديدة لدراسة العلاقة بين الشعر والذاكرة في السياق الحداثي.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتضمن مبحثين اثنين؛ يتطرق المبحث الأول إلى (الحنين إلى المكان)، أما المبحث الثاني فيتناول (الشكوى من الدهر).

الكلمات المفتاحية: النوستالجيا، الشعر المعاصر، عمر بهاءالدين الأميري، الحنين، المشاعر الإنسانية.

Nostalgia in the poetry of Omar Baha’ al-Din al-Amiri (longing for the place, complaint about the world)

Masud Salim Hamadamin[1] - Zhakaw Faisal Haqi[2]

[1+2]Arabic language Department, faculty of Education, Koya University, koya, KRG, Iraq

Abstract

This thesis focused on the expression of nostalgia in the contemporary poems as well as on its importance in constructing the meaning of the poems and articulating the inner struggles of the humanity. Nostalgia in this research is the basic emotional human constituents; their effect on psyche and biological of human being, this research brings to the fore a corpus of poems where selected poems epitomize the thematization of this construct. Nostalgia in contemporary poetry is not just a reminiscence of the past but rather an emotional nostalgia is an experience which exemplifies an identity crisis and memory. It is also worth noting that human feelings are intertwined with cultural and social construct, hence making nostalgia a notable poetic phenomenon of every exercised in reminiscence which poetry encompasses from the pre Islamic poems down to contemporary works. It is an emotional experience that reflects an identity and memory crisis. Humanity is within this sociologically constructed essence of reminiscence, making poetry a worthy phenomenon of every exercised in reminiscence. When a person reminisces on the past, to relive the hardships she encountered, she is not simply quarreling with time but rather resisting her fate, her inner self, a portion of her being which is subjugated to cruelty, injustice and oppression.

In the other hand, the present thesis highlights the importance of reawakening nostalgia in contemporary poetry, and how such sentiment can capture shared human experiences across time and space. This study advances the critical and psychological understanding of poetics and paves the way for fresh inquiry concerning the interrelationship between poetry and memory in the context of contemporary times.

Keywords: nostalgia, Modern Poetry, Baha' al-Din al-Amiri.

مقدمة

تُعدُّ النوستالجيا، أو الحنين إلى الماضي، من أعمق المشاعر الإنسانية التي وجدت صداها الواسع في الأدب، ولا سيما في الشعر؛ فهي تعبير عن توق النفس إلى أزمنة مضت، وأماكن اندثرت، وأشخاص غابوا، لكنهم ظلوا محفورين في الذاكرة. ويعدُّ الشعر، بحساسيته وثرائه العاطفي، الوسيلة الأمثل لتجسيد هذا الحنين؛ إذ يستطيع الشاعر أن يحول الذكرى إلى لوحة شعورية تنبض بالحياة، تجمع بين الألم واللذة، وبين الغياب والحضور.

إنَّ عدم الرضا عن الحاضر يدفع الإنسان للارتماء في أحضان الماضي لوهلة من الزمن، باحثاً عن توازنٍ يقيه الضياع؛ فالنوستالجيا هاجس ذكريات جميلة يحلق بالخيال إلى أبعد مدى لاستعادة لحظات السعادة التي يأبى النسيان طمسها، فتظل تتردد كمشهد سينمائي أمام المرء حتى آخر لحظات حياته. والنوستالجيا كحلقة مغلقة لها مسبباتها وتأثيراتها النفسية؛ فإما أن تصيب المرء بالتوتر والقلق فيشكو قسوة الدهر ويهرب من واقعة، وإما أن يستعيد تلك الأمكنة والأزمنة المألوفة كآلية دفاعية للتخفيف من وطأة الواقع المعيش.

وتكمن أهمية البحث في إبراز مظاهر النوستالجيا ودورها في الشعر العربي الحديث، لكونها تمثل جزءاً جوهرياً من حياة الفرد والمجتمع. وبما أن الشاعر (عمر بهاء الدين الأميري) صاحب نتاجات أدبية غزيرة تُعنى بالقضايا الإنسانية والوجدانية، فقد وقع اختيارنا على دراسة النوستالجيا (الحنين إلى المكان، والشكوى من الدهر) في شعره؛ إذ تمتزج في دواوينه شتى المشاعر الإنسانية التي تكشف عن عوالمه المخفية.

اعتمدنا في هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع القيمة، منها: (معجم المصطلحات البلاغية) لأحمد مطلوب، و(يوميات وأيام عمر بهاء الدين الأميري) لباسل الرفاعي، و(الشكوى في الشعر العربي) لظافر عبد الله الشهري. أما المنهج المتبع فهو المنهج الوصفي المدعوم بـ التحليل النقدي والنفسي.

ويتكون البحث من ملخص ومقدمة ومبحثين وخاتمة؛ خصصنا المبحث الأول لـ (الحنين إلى المكان)، والمبحث الثاني لـ (الشكوى من الدهر)، ثم الخاتمة التي تلخص أهم النتائج، تليها قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول: الحنين إلى المكان :

يحتل الحنين إلى المكان مكانة بارزة في شعر الشعراء؛ إذ قلما تخلو أشعارهم من الحنين إلى الديار منذ الجاهلية حتى يومنا هذا، وكلما تقدم الزمن ازداد الحنين عمقاً، فهو ظاهرة إنسانية رافقت الإنسان منذ خلقه وهبوطه على الأرض. وللبيئة أثر واضح في سلوك الإنسان وعلى حياته كافة حتى في مأكله ومشربه وملبسه. والأوطان عزيزة على النفوس مهما بلغ البؤس والشقاء والحرمان، وخير دليل على ذلك هؤلاء المهاجرون إلى البلاد البعيدة، فبعضهم كسبوا المال والجاه والترف، ولكنهم في الوقت نفسه يحنون إلى الوطن دائماً ويتحسرون على ما يجري فيه من مصائب.

وفي القرآن الكريم آيات كريمة تدل على حب الناس لأوطانهم، يقول الله عز وجل في كتابه: (ولو أنا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم) [سورة النساء، الآية 66]. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحن إلى مكة، وجاء في الحديث النبوي الشريف عندما أُخرج من مكة عنوة -وهي مسقط رأسه- أنه قال: (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، والله لولا أني أُخرجت منك ما خرجت) [صحيح البخاري].

وهناك مثيرات للحنين في الشعر العربي، من ذلك الرياح التي تهب من جهة الأهل والأوطان، وهديل الحمام؛ ومن أشهر هذه المثيرات نخلة الرصافة بالأندلس التي أثارت حنين عبد الرحمن الداخل فكان يناجيها في شعر رقيق وبمشاعر مرهفة. وكان للمكان نصيب وافر عند الشعراء فتغنوا بالأرض والطبيعة ومحاسن النساء وعبروا عن الحنين إلى تلك الديار.

فالحنين مرتبط بالشعور الإنساني ووجوده، فهو أحاسيس داخلية لا بد من إظهارها من حين لآخر، ومرتبط في الغالب بالتجارب التي خاضها الشاعر أو الكاتب؛ فالبعد عن الديار والأهل يعد من أهم الأسباب لظهور ظاهرة الحنين. وبما أن الشاعر عمر بهاء الدين الأميري سافر كثيراً إلى الدول الشرقية والغربية، فمن الطبيعي أن يكثر من الحنين إلى الوطن والأماكن المألوفة في أشعاره، ويتحسر لما يحدث في بلاده، ومن ذلك قوله في قصيدة (مع الذكرى آهات وإهابات):

وفي بلدي ـ واجرحَ قلبي ومهجتي ... على بلدي ـ غشمٌ تفاقمَ واستشرى

تحكمَ واحتدت صوارمُ بغيهِ ... وشذَ وجرَ الناسَ يوردهُمْ كُفرا

وأنزل .حتى تستتِبَ له القنا . ... بكل أبي من مظالمه نُكْرا

فأقصى وأفنى من يُفنَدُ بغيهُ ... ومكنَ واستدنى وأغنى الذي أطرى

وضاق بأحرار الحمى الوطن الذي ... فدوا.. فغدونا لا نرى في الحِمى حُرا

(الأميري: نجاوى محمدية، 1986، 285-286)

في الأبيات السابقة يتحسر الشاعر على ما حصل في بلاده من القهر والاستبداد، وتصف هذه الأبيات حال البلد تحت وطأة الظلم والطغيان، وكيفية القضاء على الأصوات الحرة في وطنه. وتعكس هذه الأبيات عمق انتماء الشاعر لبلده، بحيث إن الظلم والطغيان صار كمرض منتشر في جسد الوطن، وأنه ضاق على أبنائه الحقيقيين وضاعت فيه الأحرار، وهنا ذروة الألم الشعري.

ومن المرتكزات التي يعتمد عليها الحنين هي (اللذة والألم)؛ فشعور الإنسان بالألم في واقعه الجديد يذكره بالأيام الجميلة، تلك التي تمثل له عنصر اللذة فيما مضى، فهناك جدلية بين اللذة والألم؛ فكما تستدعي الغربة الحنين، فإن اللذة تستدعي الألم. والحنين عملية دفاعية تحول الماضي الجامد إلى حاضر متحرك يستمر بالعيش داخل كيان الشاعر. والمفردات الدالة على ذلك (غشم، صوارم، نكراً، يفند) كلها تعكس موقفاً صارماً وغضباً داخلياً، وحين يقول: (واجرح قلبي ومهجتي) تتجلى الحسرة بوضوح؛ فهو مجروح ينزف على ما آل إليه الوطن، وتكرار "بلدي.. بلدي" دليل على ارتباطه العاطفي ببلده، يريد أن يقول لنا: هذا المكان الذي يؤلمه هو المكان نفسه الذي يحبه. وفي موضع آخر يقول:

أنا في (الرباط) مُرابطٌ ... ورُؤايَ تُغربُ في النواحْ

أنا في (الرياض) وفي (دمشق) ... وليس عن (حلبي) براحْ

أنا في امتدادات الأذان ... كأن في نسبي (رباح)

قد يرتمي جسمي ضنىً ... والعزمُ لا يرمي السلاحْ

(الأميري: آذان القرآن، 1985، 189-190).

هذه الأبيات تحمل في طياتها مشاعر الفخر والانتماء والتمسك بالهوية العربية؛ فعلى الرغم من أنه في الرباط بالمغرب، إلا أنه يشعر بالألم والحزن على ما أصاب وطنه، ولا يستطيع الابتعاد عن سوريا وتحديداً حلب، وكأنه بلال بن رباح مؤذن الرسول، فصوته يمتد عبر الأذان في كل الأقطار العربية، وحتى إذا أصيب بالوهن والضعف الجسدي فإن عزيمته لا تزال قوية. وحنين الشاعر ليس مجرد رغبة في العودة إلى الشام وحلب، بل هو ارتباط عاطفي وثيق، فإذا ابتعد عنها فهو ليس عن حلب بـ "براح" (أي مبتعد)، وكلمة "نواح" إشارة إلى حزنه العميق.

لقد أصبح يحن إلى الماضي وبلده والأمة الإسلامية حيث كانت أكثر قوة واتحاداً فيما مضى، فهنا تعبير عن الحنين والألم على ما فات وما أصبحت عليه الأمة العربية، وهنا تناقض بين الواقع المر وبين الأحلام والآمال الضائعة

والمفقودة. يشعر بالغربة في داخله وأن عقله وقلبه معلقان في مكان آخر على الرغم من وجوده في المغرب، وتحديداً في الرباط، أما الحنين والاشتياق فيأخذانه إلى الشام فروحه متعلقة بها.

عموماً نرى صراعاً داخلياً، ولعل السبب يرجع إلى ما كانت عليه سوريا من اشتعال نار الفتنة في مطلع الثمانينيات وأحداث عنف غير مسبوقة، وصار الأميري ـ وأمثاله ـ بين نارين: نار التحسر على ما ينزل بالأبرياء والضعفاء وأبناء الدعوة من شر وبطش وقهر، ونار الحسرة على ما حدث (الرفاعي، 2011، 497-498). وتوجعاً من نار الفتنة واستعراض ذكرياته، كتب قصيدة بعد عام مما حصل (مطلع عام 1983) يقول فيها:

فواجع في (الشام) ويلاتُها ... براكين فتك وهتك عرمرمْ

(الأميري، آذان القرآن، 1985، 177)

لم يقتصر حنينه وحسرته على بلده سوريا فحسب، بل كتب لكل البلدان العربية ولفلسطين خصوصاً بعد نكسة أيلول 1973، ونظم أكثر من ديوان حول هذه الأحداث التي رآها قضية أمة، إذ نراه يقول في قصيدة (الهزيمة والفجر):

أرنو إلى الله، والضراء تُحدِق بي ... ونكبَةُ المسجد الأقصى على حَدَقي

دم الفؤادِ، ودمعُ العينِ منْ لَهَبٍ ... ذوبٍ، وَزَفرَةُ صَدري الجمر في الحُرَقِ

(الأميري، نجاوى محمدية، 1986، 89)

هذه الأبيات مطبوعة بطابع الحزن والألم المرتبطين بنكبة المسجد الأقصى، والشاعر يدعو الله أن يسهل عليه محنته لأن ما أصاب فلسطين لا يفارق عينيه. وقلبه ينزف دماً، وعيناه تدمعان من شدة الحزن وكأنهما تنبعثان من النار، فكل عضو من أعضاء جسمه يتألم بشدة وكأنه يحترق، ولا يملك ملجأ إلا الله، فكما قال سيدنا يعقوب عليه السلام: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) [سورة يوسف، الآية 86].

أراد الشاعر إرسال رسالة إلى العالم من خلال اقتباس الآية القرآنية، بأن لا حول له ولا قوة إلا بالله عز وجل. وحينما يقول "نكبة المسجد الأقصى على حدقي" فهنا ذروة الحنين؛ فهو يريد الأقصى كما كان قبل النكبة، يريد عودة الماضي المجيد. والحنين هنا ليس مجرد عاطفة عابرة بل هو جوهر محرك للقصيدة يشحنها بطاقة وجدانية عالية. وكلمة "ذوب" تشير إلى انحلال الذات في الحنين، فدمعه من النار بدل الماء يدل على ما في قلبه. والشاعر يتعمق أكثر ويعد كل البلدان العربية موطنه إذ يرى في الأمة العربية أمة إسلامية واحدة، ويقول في قصيدة (رحى):

وكم في الجزائر من محنةٍ ... وكم في عُمان وكم في عدنْ

وفي مصر هولٌ.. سلام كذابٌ ... وخِصبٌ سرابٌ، وآه وأنْ

وكم مدع قال باسم الشعوب ... وبين الشعوب أثار الإحنْ

وماذا دها وطن المسلمين ... فما عاد يحملُ معنى الوطنْ

(الأميري، الزحف المقدس، 1989، 77).

يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن واقع الأمة العربية والإسلامية، ويكشف عما يختلج في داخله من ألم وحسرة بسبب ما أصاب الوطن من فتن وخداع وتفرقة؛ ويبدأ بالجزائر، ثم عُمان، ثم عدن (اليمن)، واستخدام (كم) يدل على كثرة هذه المحن وتنوعها، مما يثير الحزن والقلق داخل الشاعر. وليست مصر بأفضل حالاً من الدول الأخرى؛ إذ تعيش في حالة من الهول والفزع، وسلامها كاذب مزيف وليس حقيقياً، و(آه) تنهيدة من أعماق الشاعر يعبر بها عن تحسره الشديد على الحالة التي وصلت إليها الأمة، فقد بلغ الفساد والزيف ذروتهما وانتشرا من المحيط إلى الخليج.

فالكلمات التي من المفترض أن تكون دليلاً على الطمأنينة أصبحت خداعة كالسراب، ففي "خصب سراب" تناقض تعبيري يُعرف بـ (الأكسيمورون)، وهو: الجمع بين نقيضين في آنٍ واحد (صحيفة مكة، 2001، 4)، مثل: (خصب، سراب)، و(سلام، كذاب). وأما الخلافات بين الأمة فقد وصلت إلى حالة يرثى لها كأن التاريخ يعيد نفسه في ذات المشهد المؤلم. وفي نهاية الأبيات يذكر الشاعر "وطن المسلمين" ويقصد بذلك (الوحدة الإسلامية) كما كانت في عهودها الزاهرة؛ فهو يعبر عن الحنين إلى وحدة الأمة، فالنوستالجيا هنا مشحونة بالحسرة على الحاضر، والزمن الماضي كان أكثر إشراقاً واستقراراً.

فالخصب الذي صار سراباً ينزف حنيناً إلى زمن كانت فيه القيم حقيقية، وذكره لـ "وطن المسلمين" هو استدعاء لحلم الوحدة الإسلامية. والنوستالجيا ليست مجرد إعلان للماضي بل هي بكاء على الحاضر بطريقة تستدعي الماضي، وهي طاقة شعرية كامنة تنفجر من قلب المأساة الحاضرة، فهو إحساس مرير بالضياع يضفي على الأبيات بعداً تأملياً حزيناً يربط بين الانكسار الشخصي والخذلان الجماعي.

تأثر الشاعر كثيراً بما آلت إليه البلدان العربية وخصوصاً الشام، وليست كل أشعاره التي يتحدث فيها عن الحنين تحمل طابعاً سياسياً؛ ففي بعض الحالات يقتصر حنين الشاعر على الأماكن المألوفة الصغيرة التي عاش فيها، كالجامعات والأماكن السياحية، ومنها "شاطئ الهرهورة" في المغرب، وقد ذكره في ديوان (نجاوى محمدية) وفي ديوان (قلب ورب)، وكان من أكثر الأماكن التي أحبها الأميري ووجد فيها راحة نفسية، حيث يخاطب الصخور والبحار ويقول في قصيدة (مع الذكرى):

وحيداً مع الذكرى.. أكابد غربتي ... وتنثرني نثراً.. وأنظمها شِعراً
بمنعزلٍ هَدرُ المحيط يَلُفُّهُ ... شواطئُهُ صَخرٌ، وقد أشبه الصخرا
تبعثر رهطُ الخيرِ في مَشرِقَ الدُّنا ... ومغربِها، والساحُ قد أصبَحَتْ قفرا
(الأميري، نجاوى محمدية، 1989، 291)

إن شاطئ الهرهورة من الأماكن التي أحبها الشاعر، وخصوصاً بعد إصابة ابنته بضيق في التنفس؛ فاشترى بيتاً هناك، وأصبحت الهرهورة مكانه المفضل لخصائصها الصحية وهدوئها (الرفاعي، 2001، 459). وفي الأبيات السابقة يصور الشاعر نفسه وحيداً يواجه ذكرياته التي تتناثر في ذهنه، فيقوم بترتيبها داخل قالب شعري، وهذا يدل على محاولته السيطرة على مشاعره وتحويلها إلى فن. ويوظف أسلوب (التشخيص) إذ يمنح الذكرى صفات الإنسان القادر على التفاعل، كما يمنح المحيط والشاطئ طاقة للتفاعل معه، ويشبه الشاطئ بالصخر إشارةً إلى القسوة والجمود، مما يعزز شعوره بالعزلة.

وحينما ترك سوريا وتحديداً (حلب) وسافر إلى لبنان، كتب عما يشعر به محاولاً تهدئة نفسه، ويقول في قصيدة (ومضت شهور أربعون):

وها أنا الآن... في (لبنان)
أحاول... أن أطمئن وأستقر...
إلى حين...
ولكن... هيهات...
القلب... في حُرق!
والنفس... في قلق!

والروح... في غلق!

(الأميري، ألوان طيف، 35)

يؤكد الشاعر عدم استقراره نفسياً، فمع أنه في لبنان إلا أن قلبه يحترق شوقاً، وإقامته هناك مؤقتة. والمفردات (قلق، غلق) بينهما جناس ناقص، وعلامات الحذف والتقطيع تدل على تردده، وكلمة "غلق" تدل على (الانزياح الدلالي)، وهو مجاز يحدث تأثيراً لا تحدثه العبارة المجردة (سلوم، 1996، 93). وقد تحمل كلمة "غلق" دلالة الروح المعلقة بين عالمين (الماضي والحاضر، الوطن والاغتراب)؛ فالشاعر مستقر جسدياً في لبنان ولكنه ممزق نفسياً. فالمكان جزء من كيان الإنسان، والارتباط به يعكس إحساساً دفيناً يجعل الشاعر يحس أن المكان له صلة بروحه (النصير، 2010، 16).

مُنع الشاعر عمر بهاء الدين الأميري من العودة إلى سوريا لأسباب سياسية، لاسيما بعد أحداث عام 1973 والاحتجاجات على الدستور، وما تبعها من اعتقالات؛ فأُرغم على البقاء في المنفى، وتم سحب جواز سفره السوري منه، فبقي مدة طويلة بعيداً عن أهله، لذلك أكثَرَ من الكتابة عن سوريا وحلب، حتى استطاع العودة إليها عام 1974 (الرفاعي، 2011، 455-456). ويصف حاله وهو مهاجر في قصيدة بعنوان (مهاجر) فيقول:

كأنني أنساب من هيكلي ... قلباً شجياً قد جفا موئله

أسيح حيران المنى ظامئاً ... أغذ في دائرة مقفلة

في الغيب.. في الغيهب في التيه.. لا ... سِربَ ولا دربَ، حزين الوله

سَرى على غير هدى... طائر ... مهاجر لم يستبن منزله

(الأميري، الأميريات، 2011، 189-190)

تنبع القصيدة من تجربة شعورية عميقة تتعلق بالفقد والضياع والحنين إلى المكان والزمان، وهي حالة من الاضطراب غلب عليها الحزن والتيه؛ فروحه تفارقه كأنها مادة سائلة تنفصل عنه ولم يبقَ إلا هيكله، وقلبه مليء بالشجن بعد أن فَقَد مأمنه وملجأه. ينتقل الشاعر هنا وهناك كأنه يدور في دائرة مقفلة لا نهاية لها، ولا يصل إلى مبتغاه؛ إذ يدور في حلقة مفرغة، فلا سِرب يتبعه ولا طريق يسلكه، فهو مهاجر لم يستبن مكان استقراره.

والحنين هنا ليس مجرد ذكرى، بل هو جرح مفتوح يمنح القصيدة ثقلها العاطفي وجمالها الفني من خلال صور بلاغية متنوعة، منها الطباق والمقابلة في قوله: (أسيح حيران المنى ظامئاً)؛ فالجمع بين (الحيرة/ المنى) يبرز التضاد، إذ تدل الحيرة على الضياع والمنى على الأمل. وكذلك الجمع بين (الظمأ/ السيح)؛ ف "السيح" يوحي بالارتواء، ولكن اقترانه بالظمأ يخلق "مفارقة شعورية" تهدف إلى إثارة الدهشة وإيصال معنى عميق للمتلقي، وهو ضرب من التأنق يستعمله الشاعر لإحداث أبلغ الأثر بأقل الوسائل التعبيرية. والمفارقة تعني: قول شيء والإيحاء بنقيضه، وهي لعبة عقلية من أرقى أنواع النشاط الذهني، وتستخدم لضبط العاطفة المفرطة وفضح التضخيم الفكري (كمال، 2013، 56-57).

وفي مقطع آخر، يصف الشاعر شدة حنينه ولوعته إلى دياره، فيقول في قصيدة (سفر الوَجْدِ):

في سفرِ الوَجْدِ البَعيدِ المدى ... والريحُ تجري سألَ الدَهْرُ

ما حالُ ذاكَ الحُرِّ قد كان في ... لأوائِهِ خَمْرَتُهُ الصَّبْرُ

مَرَّ عليهِ العامُ، أعباؤهُ ... تترى، وفي سَرَّائِـهِ ضُرُّ!

(الأميري، ألوان من وحي المهرجان، 1975، 3)

تبدأ الأبيات بالاستعارة التصريحية، وهي: "ما صُرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه" (مطلوب، 2007، 93)؛ حيث يشبه الشوق برحلة طويلة ومسيرة تمتد عبر الزمان والمكان، وهذه الاستعارة تفتح آفاقاً واسعة لفهم مدى الألم

والاشتياق الذي يعانيه الشاعر. ثم تأتي صورة (التجسيد) إذ يمنح الزمان والريح صفاتٍ إنسانيةً؛ فالريح تجري والدهر يسأل، مما يجعل الطبيعة والزمان فاعلين في الحدث الشعوري، ويشعرنا بحركة مستمرة تعكس سيرورة حياة الشاعر. ثم ينتقل إلى صورة أخرى وهي "الصبر" الذي يحمله لمقاومة آلامه. وفي قوله "أعباؤه تترى" دلالة على تراكم الهموم وتصاعد الضغوط، وهو تعبير يبرز ثقل المعاناة المستمرة. كل هذه الصور تصف الشعور بالحنين وشدته، وتجعل القارئ يعيش تجربة وجدانية مؤثرة تتناغم فيها المعاناة مع الصبر والحرية.

المبحث الثاني: الشكوى من الدهر:

تعد شكوى الإنسان من الدهر ظاهرة ضاربة في عمق التجربة البشرية، عبر عنها الأدباء والشعراء منذ الجاهلية حتى عصرنا هذا؛ فهي تعبير عن المعاناة واحتجاج على تقلب الزمان. والدهر مرتبط بمفهوم الزمن، لكنه يأخذ بعداً يتجاوز الساعات والأيام ليصير رمزاً للتحول والنكبات والحظوظ. والشكوى من الدهر ليست مجرد موقف حزين مليء بالحنين والحسرة على ما فات، بل هي صرخة وجودية ضد القهر والقمع والاستبداد، وصراع إنساني مع المصير. وفي العصر الحديث، أصبح الدهر رمزاً للسلطة، وتحولت الشكوى منه إلى وعي نقدي بالظروف السياسية والاجتماعية. وإذا كانت الفلسفة تعد الشكوى ضعفاً، فإن الأدب ينظر إليها كقوة تعبيرية ترصد الواقع وتمنح الإنسان صوتاً في وجه الصمت الزمني القاسي.

ومن حيث اللغة، تعني الشكوى إظهار ما بالمرء من مكروه أو مرض، يقال: شكا الرجل أمره، وشكوته شكوى وشكاية إذا أخبرت عن سوء فعله بك، والاشتكاء هو الحزن والتوجع من الشيء (ابن منظور، لسان العرب، د.ت، 8/ 123). وجاء في قول الله تعالى: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله) [سورة المجادلة، الآية 1]. وفي الحديث النبوي الشريف قوله صلى الله عليه وسلم: (شكونا إلى رسول الله حر الرمضاء فلم يُشكِنا) [سنن النسائي، 1/ 247]، أي لم يزل شكوانا بتأخير الصلاة.

أما اصطلاحاً، فهي تعبير ذاتي عن هموم الإنسان الناتجة عما يواجهه من مشكلات الحياة الخاصة والعامة عندما تشتد وتتعقد ويفقد السيطرة عليها؛ فعندئذ تنفجر الشكوى من الزمان، ويحدد الشاعر موقفه منه ساعياً وراء بريق الأمل لتجاوز الواقع المرير، مبرهناً على أن وجوده جزء من مجتمعه لا ينفصل عنه. وقد أصبح هذا الضرب من الشعر فناً مستقلاً منذ العصر العباسي، حيث انصرف كثير من الشعراء إلى نظمه نتيجة تجارب الحياة التي جعلتهم في غاية الحذر من الأقدار (الشهري، 1990، 6).

وثمة علاقة وثيقة بين الحنين إلى الماضي والشكوى من الدهر؛ إذ يشعر المرء بالحنين إلى الماضي المألوف هرباً من الحاضر الذي يسبب له أزمة في حياته. ولا تخلو أشعار عمر بهاء الدين الأميري من الشكوى من الدهر، إذ يقول في قصيدة (في قرنايل):

ليت هذا الزمان سار سوياً ... وتخلى عن جورهِ وقِمارهْ

وأقام القسطاس في الناس عدلاً ... فأذاق المغتر ويل اغترارهْ

وحبا راعي المروءات في الجُلى ... حُساماً يَصُولُ في بتارهْ

والنفوس المغردات هُياماً ... مدها باللحون مِن أوتارهْ

(الأميري، ألوان طيف، د.ت، 76)

يتمنى الشاعر أن يسير الزمان على طريق مستقيم خالٍ من الظلم والجور، مستخدماً أداة التمني (ليت) التي تفيد تمني ما يصعب وقوعه، مما يضفي نغمة من الحزن والتحسر. فهو ينتظر فارساً ذا مروءة يشهر سيفه في وجه الظلم. وتتأرجح هذه الأبيات بين الحنين إلى العدل ومحاسبة المغرورين، في صراع أزلي بين (الجور والسواء) أي بين (الشر والخير).

إن هذا الصراع بين الحق والباطل، والنور والظلام، يجسد القوة الإبداعية في العمل الأدبي. ففي الفلسفة اليونانية، لا يعد "الله" مصدراً للشر، بل إن الإنسان بمماهاته للشر يكون هو المصدر. ويرى فولتير أن وجود الشر والظلم قد يكون سبيلاً للتشكيك في اليقين الوجودي. أما في الدين الإسلامي، فالصراع بين هاتين القوتين صراع أزلي، وقد أوضح سبحانه مفهوم الخير الحقيقي للإنسان ليقيه من اتباع الغرائز الخاطئة؛ فثمة جانب نوراني أخلاقي يمثل الخير، يقابله جانب مظلم يمثل الشر (الديوب، 2017، 17).

وفي مقطع آخر، يتجسد هذا الصراع في نقد المجتمع الغربي الذي يراه الشاعر مصدراً لشرور معاصرة يحاول نقلها إلى الشرق، فيشتكي من شر الإنسان نفسه وما آل إليه الدهر، قائلاً في قصيدة (دورة الدهر):

أيها الصَحبُ؛ إنها دَورةُ الدهر ... كفانا في تيهنا دَوَرانا

نخر (الهيرويين) إنسان (غَربِ العَصرِ) ... نحراً فلم يَعُد إنسانا

هو طوراً (تَقْنِيَةٌ) تَنْطَحُ النَجْمَ ... وطوراً يُجاوزُ الحَيَوانا..!

والدُنى اليَومَ في رَحىً مِنْ شَقَاء ... ضَلَّ إنسانها وشَذَّ وهانا

(الأميري، حجارة من سجيل، 1989، 140)

في هذا المقطع، يصور الشاعر الزمان وهو يدور ليعيد نفسه، وقد أرهق التيه والضياع روح الشاعر في بحث لا ينتهي؛ إذ يرى أن إنسانية الإنسان الغربي المعاصر قد انطفأت، حتى غدا جسداً خاوياً من المعنى، لا يحمل من الإنسان سوى صورته. يتقلب الإنسان الحديث بين حالتين متناقضتين: إما الغرور الناتج عن التقدم العلمي والمادي، وإما الهبوط إلى درَك الحيوانية؛ ليصبح رمزاً للانحلال الأخلاقي والانهيار الروحي. وبين هذين النقيضين، يعيش العالم في طاحونة من الشقاء والمعاناة، بعد أن ضلّ الإنسان طريقه وانحرف عن القيم، فأضحى ضعيفاً ومهاناً.

ينطلق الشاعر في نقده لهذا الواقع من منطلق إنساني خالص، مدفوعاً بإحساس داخلي بأن الإنسان قد فقد جوهره الحقيقي تحت وطأة المادية الطاغية؛ لذا يبدأ بندائه "أيها الصحب" ليكون نداءً جماعياً يشمل البشرية بأسرها. أما عبارة "دورة الدهر" فتدل على عبثية التكرار، وكأننا في حلقة مفرغة. وفي قوله: (تنطح النجم/ يجاوز حيواناً) نرى انقساماً يعكس انفصام الإنسان المعاصر بين عقلانية جامحة وانحدار أخلاقي، مما أدى إلى فقدان التوازن بين العقل والروح.

وفي البيت الأخير، يغلق الشاعر الدائرة التي بدأ بها ليؤكد أن الإنسان يدور داخل طاحونة الزمن القاسي التي تسمى "الحضارة الحديثة"؛ فهو لا يحمّل الزمان مسؤولية ما آل إليه الحال فحسب، بل يضع الإنسان نفسه في موضع الاتهام. لقد انتقل هذا الشر من الغرب إلى الشرق حتى عمّ الأرض، فالدهر في ذاته ليس مذنباً، بل المذنب هو الإنسان الذي لم يحسن التعامل مع تحديات العصر؛ فكلما تقدم الزمن، ازداد شرّ الإنسان.

وهكذا يتابع الشاعر وصف هذا الانحدار، ويبوح بما يختلج في داخله من قلق وجودي وأسًى حضاري، ليؤكد أن جذور المأساة تكمن في الإنسان ذاته. وهنا يتجلى الحنين إلى قيم إنسانية سامية وإلى زمن كان للمرء فيه قيمة ومكانة، مرسلاً رسالة بأن الله عز وجل قد كرم بني آدم وأعطاهم منزلة رفيعة، فكيف لهذا الإنسان أن يهبط إلى هذا المستوى الدنيء؟

كما جاء في قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) [سورة الإسراء، الآية 70].

إن مصائب الدهر التي انعكست آثارها على حياة الناس -ولا سيما الشعراء- قد ولّدت في نفوسهم الألم والرفض نتيجة الظروف القاسية التي تتحكم في الأسس الاجتماعية والاقتصادية، ولها أثر عميق في بناء شخصية الإنسان، قوةً وضعفاً.

فمن أشقاه الزمان اشتكى منه ولامه، كما يقول عمر بهاء الدين الأميري في قصيدة (خذ بيدي):

أشكو الزمان شكاة غَيَّانِ ... وأقولُ: كَبَّلَني.. وأشجاني!

وأشِيحُ عن نَفسي وغَفْلَتِها! ... وأنا على نَفسي.. أنا الجاني!

أين الإرادةُ؟ أين طاقَتُها ... الفُطمى الوَلودُ؟ وأين إيماني؟

(الأميري، قلب ورب، 1990، 201)

في هذه الأبيات، يعبر عمر بهاء الدين الأميري عن معاناة داخلية عميقة وشعور بالضياع والانكسار؛ إذ يبدأ بشكوى الزمان كأنه يوجه إليه اللوم، وذلك من خلال صورة بلاغية بديعة في قوله: "شكاة غيان"، وهو تشبيه تمثيلي يُقصد به: «أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه» (مطلوب، 2007، 332). وكأن الظروف تعانده وتقيده، لكنه سرعان ما يعترف بأن نفسه هي سبب هذه المعاناة، فيلتفت إلى غفلته في قوله: "وأنا على نفسي أنا الجاني"؛ أي أن اللوم الحقيقي يعود عليه لا على الزمان وحده. ثم يتساءل بأداة الاستفهام (أين) عن قوته الداخلية وعزيمته التي كانت "فطيمة" (قوية ونشيطة)، وعن إيمانه الذي كان يمنحه القوة؛ مما يظهر حنين الشاعر إلى ماضيه حين كان أكثر صلابة وإيماناً.

ومن باعث آخر لشعر الشكوى؛ إخفاق الشعراء في تحقيق طموحاتهم، وشعورهم بأنهم لم ينالوا المنزلة التي يستحقونها في المجتمع. ونلاحظ ذلك في شعر الأميري الذي عكس شعوره بالقهر والظلم، فجعل يلوم الزمان ويشكو لصديقه (أبي حسن) في قصيدة (شكاة):

(أبا حسنٍ) قد رماني الزمانُ ... من الأمرِ في مُبهمٍ مُغلقِ

عصاني الحِجى في اختيارِ السبيلِ ... إلى نيلِ مطلبي المُرهقِ

فقومي، وأعظِمْ بهم أُمةً ... أرُومتُها للعُلى ترتقي

وقد ملك الأمرَ منهم رجالٌ ... يُخالفُ منطقُهم منطقي

(الأميري، ألوان طيف، د.ت، 87)

يشكو الشاعر حاله بعدما أصبح أسيراً لموقف مبهم لا يستطيع فك عقدته، كأن الزمان هو الذي ألحق به هذا البلاء. وقد خذلته حكمته (الحِجى) في اختيار الطريق الموصل لمطلبه الشاق، مما زاد من حيرته. والشاعر هنا يعتز بعراقة أمته، لكنه يعبر عن شكواه عبر "استعارة مكنية"؛ وهي: «التي اختفى فيها لفظ المشبه به واكتُفي بذكر شيء من لوازمه» (مطلوب، 2007، 88)؛ فصوّر الزمان إنساناً يرمي السهام ليبرز قسوة الأيام. وفي قوله "عصاني الحِجى" تجسيدٌ للعقل كأنه شخص يعصي أمره. ثم يعبر عن اغترابه الفكري، فرجال قومه يخالفونه في المنطق والمبادئ، مما أدى إلى إبعاده وتجريده من منزلته. وفي بيت آخر ينادي صديقه طالباً العون:

فكن يا (أبا حسنٍ) مُسعفي ... نزودُ النوازلَ أو نتقي

(الأميري، ألوان طيف، د.ت، 89)

استخدم الشاعر نداء الاستغاثة وفعل الأمر "كُن" طلباً للمساندة في أزمته التي عجز ذكاؤه عن حلها بمفرده. ويشير إلى تفاصيل هذه الأزمة (المؤامرة التي حيكت ضده) في قصيدة (كرامة):

غِيظَ العُدى فتألبوا ... وتدبروا نصبَ الكمينْ

قد أرجفوا فَنداً كثيراً ... ضلَّ سَعيُ المرجفينْ

نزعوا (السفارة) من يدي ... فمضيتُ مرفوعَ الجبينْ

لم يرتفعْ شأني بها ... ورفعتُها في الرافعينْ

وسللتُهم من خاطري ... سلَّ القذاةِ من العجينْ

(الأميري، ألوان طيف، د.ت، 124)

في هذه القصيدة، يحارب الشاعر خذلان الخصوم، وكذب المرجفين، وعزل المنافقين؛ ليصنع منها وثيقة عز وكرامة. يرتفع صوت الشاعر لا ليشكو، بل ليفخر، ومن بين ثنايا أبياته ينبثق معنى المضي بأن الكبرياء لا يُنتزع، والمنصب لا يصنع الرجال. وعندما اغتاظ الأعداء من رفعة الشاعر، تآمروا ضده ونصبوا له كميناً في الخفاء؛ فعبر الشاعر عن غيظهم من خلال "استعارة مكنية" صوّرها كقوة محركة للأعداء، مما أعطى القصيدة افتتاحاً قوياً ينقل القارئ إلى قلب الأزمة، ويبرز مهارة الشاعر في خلق جوٍ دِرامي مشحون بالتوتر. فالشاعر عُزل من منصبه، لكنه خرج بعزة نفس تامة، وقوله: "مرفوع الجبين" كناية عن الكرامة والشرف؛ إذ أراد إثبات أن القيم الأخلاقية أسمى من الكرسي والمنصب، فهو لم يرتفع بالمنصب بل رفعه بعطائه، ثم انتزع خصومه من خاطره كأنهم "قذاة" خبيثة تُسلُّ من العجين.

وحين يكبر المرء في العمر ويشتد به المرض، يلوم الدهر ويشكو منه، ويحن إلى ما كان عليه في الماضي من شباب وقوة. وقد مر الشاعر بهذه المراحل في حياته، فكان كثير السفر والترحال حتى أقعده المرض، إذ نراه يقول في قصيدة (مبراة السنين):

أمبراةَ السنين عليَّ دارتْ ... ودُرتُ بها، ومن مصرٍ لمصرِ

رويدكِ، إن وَهى عظمي وجسمي ... فما وهَنَت مكابدتي وصبري

ومهما نالت الأعباءُ مني ... ومهما اشتد في الإيذاءِ دهري

أظلُّ، وهمتي، والهمُّ، أسعى ... ولو لم يبقَ مني غيرُ نَزرِ

(الأميري، سبحات ونفحات، 1990، 43)

الشاعر هنا يعبر عن تجربة طويلة مع الزمان الذي دارت دوائره عليه كـ "المبراة"، ويشير إلى أن تقلبات الحياة تعيد الإنسان إلى مراحل مختلفة؛ وعلى الرغم من وهن جسده إلا أنه لا يزال صبوراً ثابتاً. وهو يطالب الزمان بالتمهل بقوله: "رويدك"، في تشخيص للدهر يعكس صراع النفس مع الجسد.

تتميز هذه الأبيات بالواقعية؛ فالإنسان منذ البدء يعبر عن وجدانه ويتناول واقعه وواقع من حوله، والواقعية تقوم بتصوير الأشياء خارج نطاق الخيال المحض، وغايتها أن يصبح الإنسان سيداً في مجتمع عادل (خضر، 1967، 3). فالشاعر لا يهرب من الحقيقة المؤلمة، وفي الوقت نفسه لا يندب حظه، بل يعبر عن مقاومته الصامدة، مما يثير تعاطف القارئ ويحفزه على التمسك بالأمل والابتعاد عن التشاؤم رغم مرارة الموقف.

ومع الشعور بالوحدة، يزداد الحنين إلى الماضي والشكوى من قسوة الدهر في تغيير الأشياء، مما يحدث فراغاً في الحاضر. يقول عمر بهاء الدين الأميري في قصيدة (قضاء):

يا باسط الدهرِ ممتدّاً إلى أزلٍ ... هل تنقضي غُصصي أم ينقضي الدهرُ

وهل لِغُربةِ روحي في الحياةِ هوىً ... يحنُو ويؤنِسُني! أم طابتِ الحفرُ؟
ماذا نُفيدُ وقد جَفتْ حُشاشتُنا ... من السنين، إذا أندى لنا الوطرُ
هذا زمانُكِ يا آمالُ فانطَلقي ... وأشرِقي بحياةٍ كلُها غُرَرُ
لو أن لي طاعةً في الأمر نافذةً ... لنلتُ أقصى المنى والعمرُ مزدهرُ
لكنني بقضاء الله مُرتهنٌ ... سمعاً وطوعاً لأمر الله يا (عمرُ)
(الأميري، ألوان طيف، 188-189)

تتجلى في هذه الأبيات حالة من التأمل العميق في علاقة الإنسان بالدهر والزمن؛ حيث تتداخل فيها مشاعر الشكوى من الدهر مع الحنين إلى زمن أفضل، ثم ينتقل الشاعر إلى حالة من القبول والتسليم بحكم القدر؛ فالإنسان بين الألم والأمل، وبين الإرادة والتسليم. وفي مطلع القصيدة، يجسد الشاعر الدهر ككائن ضخم ممتد إلى أزل، مستبدٍ يتحكم بمصير الإنسان ويطيل آلامه، وهذا التصوير يُضفي على الدهر صفة القوة والخلود، مما يجعل الإنسان يبدو صغيراً في مواجهته.

بعد ذلك، يطلق الشاعر تساؤله المرير: "هل تنقضي غُصصي أم ينقضي الدهر؟"، وهو سؤال يحمل وجع المعاناة المستمرة، حيث أصبحت غربته غربة روحية تتجلى فيها مرارة الزمن حين "جفت حشاشته" (أي روحه وعاطفته) نتيجة الأعباء التي فرضها عليه الدهر؛ وقد استخدم الشاعر كلمة "الحشاشة" بدل "الروح" في استعارة دقيقة. وفي لحظة اليأس، ينبثق الحنين إلى حياة كان يملؤها الأمل والحيوية والنجاح؛ وحين يتمنى الشاعر أن تكون له "طاعة في الأمر نافذة" (أي قدرة على السيطرة وتحقيق الأماني)، فإنه يعبر عن تواصل نفسي عميق بين الحاضر المرير والماضي المجيد.

وفي جانب آخر، تتحول الشكوى والحنين إلى استسلام مطلق للقدر والحكمة؛ فهو "مرتهن بقضاء الله"، يتقبل ما قُدر له "سمعاً وطوعاً"، وهذا تعبير عن السلام الداخلي الناتج عن التسليم. كل ذلك يبرز قدرة الشاعر على المزج بين المشاعر الإنسانية المختلفة، بما يحث القارئ على التأمل والتعامل مع المصائب بحكمة.

وفي حالات أخرى، يتغير لوم الدهر؛ إذ يرى الشاعر أن الإنسان هو سيد الموقف، وليس للدهر ذنب فيما يصيب المرء، بل إن الدهر أحياناً يمنح فرصاً أكبر مما يتوقع الناس. ونرى ذلك في شعر الأميري، خاصة عند انقسام الحركة السياسية التي كان عضواً بارزاً فيها؛ إذ طالبت قيادة الإخوان في سوريا بالوحدة وعدم الانقسام، لكنهم لم يستجيبوا، فانقسموا إلى جناحين، وفي ذلك يقول في قصيدة (في غَلق):

وصحابٌ في جدالٍ ... ومُضيٍّ غيرِ صائبْ
كمنامٍ طامحٍ في ... فلواتِ الوهمِ جائبْ
يرقُبون الدهرَ أن... ... يأتي عنهم بالعجائبْ
فإذا واتتهمُ الأيامُ ... فالربانُ سائبْ
وتضيعُ الفرصةُ المثلى ... ولا تجدي المنادبْ
ضلَّ من يأملُ أن ... يُقهرَ باللغوِ المصاعبْ
وآهِ من وطأةِ هذا ... العمرِ، والأمرُ نوائبْ
أنا من رهطي، ومن قومي... ومن دنيايَ غاضبْ
(الأميري، ألوان طيف، د.ت، 400-401)

يستهل الشاعر القصيدة بصيحة عتاب مريرة يرصد فيها حال من حوله؛ فأصحابه تفانوا في لغو القول دون غاية نافعة، وكأن وجودهم مجرد حركة بلا هدى، وثرثرة بلا ثمر. ويرسم تيههم في صورة فنية بليغة كأنهم في "فلوات الوهم" القاحلة، حيث انقلب الحلم وهماً. كما يسلط الشاعر الضوء على "العقلية الاتكالية" المهزومة؛ وهي حالة نفسية تجعل الشخص يعتمد بشكل مفرط على الآخرين لتلبية احتياجاته، ويجد صعوبة في اتخاذ القرارات (مجيد، 2015، 105-106).

أشار الشاعر إلى أولئك العاجزين المنتظرين من الزمان أن يحقق المعجزات نيابة عنهم، لقد أصبحوا عاجزين عن الفعل وإن كانوا ماهرين في التمني. وحين تواتيهم الأيام ويمنحهم الدهر الفرصة، يُهملونها؛ إنها صورة موجعة لغياب القيادة الراشدة، فتضيع الفرص وتُهدر، ولا يبقى سوى "المنادب" التي لا تجدي نفعاً، إذ أصبحت عادةً لا تعبيراً عن وعي. وهنا استخدم الشاعر أسلوب "التهكم"؛ وهو ذكر الكلام في غير سياقه المتعارف عليه بهدف النيل من فكرة أو معتقد، وهو نوع من "التضاد" حيث يقول المرء ضد ما يريد قوله صراحة بنية السخرية للإصلاح والتهذيب (الحوفي، 1956، 72).

يسخر الشاعر ممن يستبدلون الكلام بالعمل، كأن الكلام وحده يكفي لنهضة الأمم. وفي النهاية، يرثي حاله ويتأمل ما فعل به العمر مستخدماً لفظة "وآه"؛ وهي في الأصل "حرف نداء مختص بباب الندبة" (مطلوب، 1980، 128)، تحمل حسرة موجعة وغضباً من كل شيء، حتى من نفسه، كأنه يعلن القطيعة مع الجميع ويمضي وحيداً في مواجهة وعي اجتماعي مختل وموجع.

للتربية الدينية عند الشاعر تأثير جليّ على أشعاره عامة، وعلى قصائد الشكوى من الدهر على وجه الخصوص؛ إذ نراه في بعض الأحيان متردداً في شكواه، مدركاً أن الزمان ليس له قدرة على الضر أو النفع، بل ذلك كله من الخالق سبحانه وتعالى، وأن الشكوى من الدهر قد تلمس الجانب الإيماني. يتجلى هذا الانضباط العقدي في قصيدته (قدر) إذ يقول:

كيف أشكو وأنا.. ... المغمورُ بالنعماءِ غَمْرا؟
كيف لا أشكو، وقد.. ... ضيَّعتُ بالأوهامِ عُمْرا!
كيف أشكو وجمالُ.. ... الكونِ يَجلو ناظريَّا!
كيف لا أشكو، وقصدي ... أبداً يَعدُو قَصيَّا!
كيف أشكو، كيف لا.. ... أشكو، ومن أشكو، ومِمَّ؟!
وأنا في فلكِ.. ... الأكوانِ طيفٌ قد أَلَمَّ!!
أنا في قافلةٍ لا ... تنتهي إلا بَعيدا
كائنٌ أُرغِمَ أنْ.. ... يَحيا، شقيَّاً أم سعيدا
(الأميري، ألوان طيف، د.ت، 147-148)

في هذا المقطع تتجلى مشاعر التردد بين الشكوى والامتنان، وبين الحيرة واليقين، لتكشف عن حالة إنسانية عميقة: هل يحق للإنسان أن يشكو وهو غارق في النعماء؟ يثير الشاعر تساؤلاً جوهرياً يشير فيه إلى أن الشكوى، مهما بلغ صدقها، قد تخدش جدار الإيمان. ويبدو الشاعر هنا متأثراً بملامح "الوجودية المؤمنة"؛ وهي حركة أدبية وفكرية تؤكد على حرية الفرد ومسؤوليته في خلق معنى لحياته في عالم قد يبدو قلقاً، لكنها تربط هذا القلق بالسعي نحو الفهم والارتباط بالخالق (ماكوري، 1982، 76-77).

يبدأ الشاعر من موقع الورع، مجتنباً كل ما فيه شائبة اعتراض؛ فهو لا يريد أن يمد يده بالشكوى لأن الله أغدق عليه من النعم ما يغمر كيانه، لكن هذا الوعي لا يمنع الألم المترتب على إهدار العمر في الأوهام. إن التكرار بين "كيف أشكو" و"كيف لا أشكو" يعكس صراعاً داخلياً دائرياً بين الرغبة والأخلاق، وبين العقل والقلب.

ثم ينتقل إلى صورة كونية كبرى ليعزز فكرة الامتنان؛ فالجمال الكوني برهان على الحضور الإلهي وسبب لكف اللسان عن الشكوى. وتصل الحيرة ذروتها في قوله: "كيف أشكو، كيف لا أشكو، ومن أشكو، ومِمَّ؟"؛ حيث يجمع بين الاستفهام الإنكاري المتكرر وبين الصورة النفسية للإنسان الذي يتردد بين إفراغ مشاعره أو كتمانها، وبين البوح الوجداني والتسليم القدري.

يصور الشاعر نفسه "طيفاً" عابراً في فلك الأكوان، في إشارة إلى ضآلة الوجود الإنساني أمام عظمة الخلق. وهنا يتجلى البعد الإيماني؛ فالشاعر لا يعترض، بل يقف على الحافة، يخشى أن ينزلق من التعبير عن المعاناة إلى الاعتراض على القدر، مستحضراً في وعيه الحديث القدسي الشريف: (يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر) [صحيح البخاري، رقم 7491].

وهكذا، نجد أن الأميري لا يسب الزمن صراحة، بل يمارس انضباطاً داخلياً، معاتباً نفسه ومفتشاً عن صيغة للبوح لا تصطدم مع العقيدة، لينجح في تحقيق التوازن بين حرية التعبير الوجداني وخشية الوقوع في المحظور الشرعي.

نتائج البحث

بعد هذه الجولة التحليلية في نتاج أحد أعلام الأدب المعاصر، الشاعر عمر بهاء الدين الأميري، وتسليط الضوء على "النوستالجيا" (الحنين إلى المكان والشكوى من الدهر) في قصائده، وصلنا إلى النتائج الآتية:

1. إن الحنين موجود في شعر الشاعر وبقوة، وكانت حياة الشاعر الاجتماعية والسياسية والثقافية سبباً في غزارة هذه الظاهرة بهذا الشكل.

2. النوستالجيا عند عمر بهاء الدين الأميري ليست مشاعر عابرة، بل هي جزء من البنية الإبداعية التي تجمع بين الحب، والفقد، والتأمل الروحي، وهوية المكان والزمان، وانتقال سلس بين هذه العناصر من دون شعور القارئ به وإيصاله إليه مصاحباً مع عمق المشاعر الوجدانية وحس إنساني مؤثر، وهذا التنوع والقدرة جعلاه شاعراً مؤثراً في الأدب العربي المعاصر.

3. اتضح من خلال البحث أن الموضوعات الشعرية لدى الأميري متنوعة تضم القضايا الإنسانية وعلى أمل الانطلاق نحو الإصلاح، وطموحه الذاتي الكبير جعله يصطدم بالواقع المر، وكانت الذكرى والحنين محفزَيْن أساسيَّيْن في أشعاره مما أدى إلى ظهور الصراع والتوتر والقلق والغربة، والشكوى من الدهر واللجوء إلى الخيال.

4. كانت للتربية الدينية عند الشاعر أثرٌ في أشعاره، ولا سيما الأشعار التي يشكو فيها همومه خوفاً من أن يمس الجانب الإيماني ويقع في المحظور.

5. أراد الشاعر عمر بهاء الدين الأميري من خلال تجسيد النوستالجيا خلق جسر التواصل بينه وبين عواطفه وبين القارئ مما يجعل تجربة القراءة أعمق، وإبراز التعليقات حول الحنين في المجتمع، والتي فيها الحزن المتخفي والذكريات المصاحبة للألم.

قائمة المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، د.ت.، الجزء الثامن، إيران ـ قم، نشر أدب الحوزة.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1407هـ - 1986م) نجاوى محمدية، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، دار القبلة للثقافة الإسلامية.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1985م)، آذان القرآن، الطبعة الأولى، عمان، مؤسسة الأمة للعلاقات والنشر والترجمة.

الأميري، عمر بهاء الدين، د.ت.، ألوان طيف، الطبعة الأولى، الكويت، دار البيان.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1409هـ - 1989م)، الزحف المقدس، الطبعة الأولى، الأردن ـ عمان، دار الضياء للنشر والتوزيع.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1432هـ - 2011م)، الأميريات، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1409هـ - 1989م)، حجارة من سجيل، الطبعة الأولى، الدوحة ـ قطر، دار الثقافة.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1990م)، قلب ورب، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشامية للطباعة والنشر، دمشق/ دار القلم للطباعة والنشر.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1990م)، سبحات ونفحات، الطبعة الأولى، الرياض ـ السعودية، بنك الرياض الثقافي.

الأميري، عمر بهاء الدين، (1975م)، ألوان من وحي المهرجان، الطبعة الأولى، السعودية، وزارة الثقافة.

الديوب، سمر (1439هـ - 2017م)، الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالاته، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية المقدسة.

الرفاعي، باسل (2011م)، يوميات وأيام عمر بهاء الدين الأميري، الطبعة الأولى، عمان ـ الأردن، دار الفتح للدراسات والنشر.

رقيق، كمال، (2013م)، المفارقة بين المفهوم والاصطلاح، الجزائر، دار المنظومة.

روي، كلود (1983م)، دفاعاً عن الأدب، ترجمة هنري زغيب، بيروت ـ لبنان، منشورات عويدات.

الحوفي، أحمد محمد (1956م)، الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها، القاهرة، مكتبة النهضة.

خضر، عباس، (1386هـ - 1967م)، الواقعية في الأدب، بغداد، دار الجمهورية.

سلوم، تامر، (1416هـ - 1996م)، الانزياح الدلالي الشعري، بيروت، دار النهضة العربية.

الشهري، ظافر عبد الله (1990م)، الشكوى في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، المملكة العربية السعودية، وزارة الثقافة.

العسقلاني، علي بن أحمد بن حجر (1407هـ - 1986م)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الجزء السادس، دار الريان للتراث.

مجيد، سوسن شاكر، (2015م)، اضطرابات الشخصية، أنماطها، قياسها، الطبعة الثانية، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع.

مطلوب، أحمد، (2007م)، معجم المصطلحات البلاغية وتطويرها، وكالة المطبوعات.

مطلوب، أحمد، (1980م)، أساليب بلاغية، شارع فهد ـ الكويت، مكتبة لبنان ناشرون.

النسائي، الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، (1348هـ - 1930م) سنن النسائي، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.
النصير، ياسين (1986م)، الرواية والمكان، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام.